عبادة الثعابين المعابد الأثرية في دبي (نموذجاً) خلال الألف الأول ق. م.

د. عزة بنت عبدالرحيم شاهين*

عرفت الإمارات العربية المتحدة في العصور المنصرمة العديد من الديانات شأنها شأن بقية دول الخليج العربية، وقد دلت الآثار في كثير من المواقع الأثرية في القصيص (دبي) وفي أم النار (أبوظبي) وكذلك أماكن متفرقة في الشارقة إلى الكثير من الآثار التي دلت على الديانات المتعددة وإن الشواهد الأثرية هي من الوضوح بمكان لتلك المعتقدات، ومنها عبادة الشمس وعبادة الجمل وعبادة الخيل وعبادة النار وعبادة الثعابين التي سوف نتحدث عنها في هذه المحاضرة، يقول ج. سيرلوت في قاموس الرموز: (الأفعى رمز للطاقة وللقوة الخالصة البسيطة) على أن الثعبان عرفته الأمم السابقة ليس في حوض الخليج العربي فقط، بل في كثير من أصقاع العالم الحضري القديم واتخذ كا رموز لمعانٍ كثيرة وفي مجملها قداسة وملهما للشعوب أو قوة، أو حياة، أو الرمز الأكثر قداسة، ولعل أقدم أثر للتقديس الثعبان هو ما عثر عليه في حضارة الموهنجدارو (موه ــ نجو ــ دارو) وتمثل ذلك في ثعبان برأسين وقد كان ختما عجيبا خلفه الغزاة الآريون عندما أحكموا قبضتهم على شمال الهند.

وترتبط عبادة الأفعى أو عبادة روحها في الهند برمزية مياه البحر، فالأفاعي حارسة نيابيع الحياة والخلود وثروات الروح العليا والتي يرمز لها بالكنوز الدفينة، كذلك هي رمزًا للخراب وإصابات البلاء.

وهناك عبادة الثعابين موجودة في مصر والسودان فهناك الثعبان برأس أسد في صورة للإله (أبادماك) في منطقة النقعة في السودان.

وكذلك في مصر كان الفراعنة يضعون على قبعاتهم ثعبان واحد أو رسم لثلاثة ثعابين لها دلالاتها القدسية، فقد كانت الأفعى شعار الملكات العظيمات في الأزمنة الأولى، ومنهن: إيزيس وحتشبسوت وسميراميس ونفرتيتي، وكليوباترا وغيرهن.

وهناك ثعبان يحمل في دلالاته النار، وهم يعتبروا حماة ضد الأرواح الشريرة.

وأيضًا هناك الصولجانات المقدسة التي تحمل رسوماً للثعابين ولها دلالاتها المقدسة كأن تكون خاصة بالرهبان أو القديسين أو خدّام المعابد.

على أن الثعبان وفي الدولة الوسطى قد استبدلت بحرف (د) في بعض الكلمات) كان يمثل حرفًا من حروف الهيروغليفية المصرية (الفرعونية) القديمة، وهو يعني حرف (ج) معطشة وهناك الثعبان الأقرن فهو يرمز إلى حرف (ف) وفي القبطية ، ولا ننسى

* أستاذ مساعد في التاريخ الحديث والمعاصر(السياسي والحضاري) المملكة العربية السعودية - جدة

المنارة للاستشارات
PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.

حكاية نبي الله موسى مع الفراعنة وكيف أن عصاة موسى تحولت إلى ثعبان بإذن الله وأكل ثعابين السحرة ثم تحول ثانية إلى عصاة واعتبرت العصاة كرمز وسُنَّة للأنبياء، ومازال كثير من المسلمين يحرصون عليها حتى اليوم في كثير من أصقاع العالم بما فيها دولتي عُمان والإمارات وكثير من بوادي العرب.

وهناك معانٍ عدة لكلمة ثعبان عند الشعوب حسب لغاتها ونجد أنَّ كلمة أبيب: إله الفرح من أصله (هوبا) و(هابي) إله النيل من إله الثعابين وذلك لأن الثعبان الكبير (أبيب) يرمز إلى الظلام. (عن التقويم القبطي واللغة القبطية).

وأبيب: من الأشهر القبطية وأساساً مأخوذ من كلمة الورد.

وفي ملحمة جلجامش نجد ذكر الثعبان وارداً وهو يرمز إلى الحياة (الجديدة) يقول النص:

فشمت الحيَّة شذى (نفس) النبات...

فشللت واخطفت النبات...

ثم نزعت عنها غلاف جلدها.

وهنا يثبت النص جدية الرمز الذي يدل على معانٍ يسوقها الإنسان أو وسائل يستخدمها ليحدد بها جدوى الحياة، ويلتمس فيها هدفه للعالم. (الذنون، عبدالحكيم:، بدايات الحضارة، ص٥٧، ط٢٠٠٩م، دمشق).

وأما علماء اليونان (الإغريق)، فكان لهم الفضل الكبير في إنشاء المدارس التي تهتم بعلم الطب إلى مصاف الآلهة وأطلقوا عليه لقب إله "والصيدلة، كما رفع الإغريق كاهنهم: (اسكولاس) الشَّفَّاء. وكانت الثعابين عندهم رمزاً للحياة والحكمة والشفاء وقد بقي الثعبان الملتف حول العصا رمز للصيدلة حتى اليوم.

أما التقديس الباقي إلى يومنا هذا فهو موجود في الهند والبنغال فثعبان العبادة يشير إلى المكانة العالية في الأساطير الهندوسية ويطلق عليه بالسنسكريتية النجا (الملك كوبر ــ الذكر (الناغا) والأنثى (ناغي)). وبالرغم من أنه مصطلح غامض إلا أن الهندوسية والبوذية استخدمته في كثير من الأحيان على أن كلمة ثعبان في الهندية هو ساط .

وتقدم قرابين الزهور والبخور والشموع وكذلك الحليب طبقاً لمساعدة المصلي لاكتساب المعرفة والثروة في مهرجان هندوسي في اليوم الخامس من شارانانا ونلاحظ أن الإله (شِيْفَا) يرتدي ثعبان حول عنقه.

ومازال التقديس العبادي للثعبان في شمال الهند، لاسيما الثعبان: (نقراجا) والمعروفة باسم ملكة الثعابين والتي كانت تعبد أساساً في جنوب الهند، أما الثعبان (ماناسا) فعبادته في البنغال (بنجلاديش).

والناغا تشكل جزءا هاما من الأساطير الهندوسية.وتلعب دورا بارزا

المنارة للاستشارات
PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.

في **الأساطير المختلفة**:

١ــ شيشا Shesha أو أدي شيشا أو شيشانجا(Sheshnaga’ Adisesha وهــو رأس الأفعى) تمسك العالم على رأسه كثيرا ويقال لاستخدامها من قبل الرب فيشنو للراحة. Sheshaوشيشا أيضا محمية الرب كريشنا من عاصفة رعدية أثناء ولادته.

٢ــ فاصوكي Vasuki إله سمح لنفسه أن يكون ملفوفة حول جبل ماندارا من ديفــاس Devas وAsuras ويقدم له شراب الحليب وهو شراب شهيويرمز الى الخلود.

٣ــ كالي كا Kaliya سممت جامونــا/ نهــر يامونــا الــذي عــاش فيــه. كريــشنا (Balakrishna بالا كريشنا الرضيع) مستضعفة

(كالي يا) Kaliya من الرقص عليه وأجبره على مغادرة النهر.

٤ــ (ماناسا) هي ملكة من الثعابين. كما يشار إليها بإسم ماناشا Manasha

٥ــ انانتا هي الأفعى التي لا نهاية لها من الأوساط في العالم.

٦ــ (باد مانا بها)Padmanabha غو باد ماكا (Padmaka) وهو ثعبان وصي علــى الجنوب الهندي

٧ــ استيكا Astika هو نصف براهمين ونصف النجا.

٨ــ كولي كا Kulika وهو أحد الآلهات المقدسة من الثعابين أيضا

ولا ننسى في ختام هذه المقدمة التاريخية لتقديس الثعابين أن نعرج على عبادة الثعابين في البحرين فقد عثر في بعض المعابد في مملكة البحرين على هياكل عظيمة لثعابين حَيَّة أساسًا وموضوعة في زباديات ومغطاة بأغطية من نفس خامة الزباديات الفخارية وبالرغم من جهود علماء الآثار لمعرفة الهدف ألعبادي لوضع الثعبان بهذه الطريقة إلا أنهم أشاروا إلى أن عبادة الثعابين في البحرين أقدم بكثير منها في الإمارات موضع هذه المحاضرة.

بعد هذا التقديم واللمحة السريعة عن الثعابين وتقديمها لدى الأمم والشعوب نتطرق إلى تقديس الثعابين في دولة الإمارات العربية المتحدة من خلال **الآثار**:

تل القصيص:

حظيت الثعابين بتقديس من الإنسان في العديد من المدن الساحلية في الخليج، وكانت الآثار التي عثر عليها في الإمارات والبحرين أعطت انطباعا عن طرق تلك المعتقدات.

في مقبرة القصيص في دبي عثر على العديد من الثعابين النحاسية في مجموعة من المعابد وهي معروضة في متحف دبي (متحف قلعة الفهيدي) وهذه الثعابين تدل على المكانة الدينية التي كان خدام تلك المعابد يولونها.

ويشير النحاس بشكل واضح إلى الاستعمالات العديدة له منذ العصر النحاسي ٢٥٠٠ ق. م، وما بعده حتى الألف الأول فترة هذه الدراسة (المحاضرة) حيث استخدم النحاس

المنارة للاستشارات
PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.

في صب نماذج وأشكال الثعابين المطلوبة للمعابد، إن كثرة الأفاعي النحاسية (المسبقة الصب) التي عثر عليها في وضعيات مختلفة دلّت وبوضوح إلى أن عبادة الثعابين كانت مقدسة إلى جانب العبادات الأخرى، حيث أن التسامح الديني في تلك الفترة كان معروفاً في معظم مدن الإمارات.

تل الأفاعي:

في الشمال الشرقي من ديرة وعلى بعد ١٣ ك متراً يوجد موقع القصيص الأثري في أرض سبخية محاطة بالكثبان الرملية والشجيرات الصحراوية والأعشاب البرية.

وفي منطقة تبلغ مساحتها حوالي ٣ كيلو متر مربع يوجد تل رملي عثر الباحثون الأثريون فيه على بقايا أثرية عبارة عن قطع من الخزف والحجارة المحروقة كما عثر على عدد كبير من اللقي الأثرية منها ٦٢٢ سنا من أسنة السهام، وخزف محلى بزخارف تمثل أفاعي (رأسا ثعبانان لغطاء زبادية)، وأفاع أخرى برونزية صغيرة ومحارق بخور (مباخر حجرية) وأدوات كانت تستعمل يومياً من قبيل كلاليب (الصنارة) السمك (الذي يعرف محليا بـــ(المِيْدَار)) والإبر والمخارز، وقدر الباحثون أن الموقع المذكور كان معبداً مقدساً وأنه كان للأفاعي دور مهم في حياة الناس فأطلق عليه تل الأفاعي ، لقد قارن الباحثون الأثريون بين الآثار المكتشفة في كل الأفاعي وغيرها من الآثار فوجدوا أنها كانت شائعة الاستعمال قبل مايزيد عن ٣٠٠٠ سنة.

وتعد كل الأفاعي الأثر الوحيد في منطقة القصيص بدبي الذي لم يكن على شكل مدفن أثري، والمرجح أنه كان معبداً صغيراً.

في أحد المدافن المكتشفة في القصيص الذي يعود تاريخه إلى الألف الأول ق. م. ويحتوي على هيكل عظمي ممدد على الجانب الأيمن من الشمال إلى الجنوب في وضع القرفصاء يشبه بوجه نحو الجنوب الغربي ويحمل بيده اليمنى كأسا فخارياً صغيرِ.

وقد يدل على أنه كان كاهناً أو إنسانا ذو مكانة دينية للمعبد.

والمعروف أن الموتى عادة لا يحملون في أيديهم أو يمسكون بشيء البتة وإنما كان يدفن بجوارهم الأسلحة كالخناجر والسيوف وكذلك اللقي والجرار الصغيرة مملئة بالطعام وهي دلالة على البعث المعروف لدى كل حضارات العالم، ولكن الإمساك بالكأس فهي دلالة على أمر ما ولعل الأقرب أنه ذو مكانة دينية قريبة من المعبد كما ذكرنا.

وهناك احد مدافن موقع القصيص الأثري يعود إلى النصف الثاني من الألف الثاني ق.م محفور بطبقة السبخة باتجاه شرق غرب على عمق ٣٠ سم وعرض ٩٠سم يحتوي على هيكلين عظميين متقابلين بوضع القرفصاء ممددين باتجاه شرق/ غرب متشابك الأيدي والأرجل يرجع كونهما زوجين دفنا معاً طبق طقوس وعادات دينية واجتماعية وفي القبر سيف قصير متحجر و٤ سهام.

المنارة للاستشارات
PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.

الآثار في الإمارات:

كانت البداية عام ١٩٦٤م حين تم العثور على بعض التحف الإسلامية من العهد الأموي في منطقة الجميرا بدبي، لكن التنقيبات المستمرة في (حَتَّا) و(القصيص) و(حميرا) أكدت مساهمة دبي منذ أكثر من ٥٠٠٠ سنة في بناء الحضارة، الإنسانية لمنطقة الخليج، وأنها شهدت كثافة سكانية مرموقة منذ بدايات الألف الثالث ق. م. وأحرزت تقدماً ملموساً في ميادين البناء والزراعة والصناعة والفن، وانتعاشا في علاقاتها التجارية مع مراكز الحضارات الأخرى على امتداد سواحل الخليج.

إذا كان البناء الأثري في حتا يعود إلى نهاية الألف الرابع وبداية الألف الثالث ق. م. فان القصيص كانت واحدة من أكبر وأهم المستوطنات البشرية على شاطيء الخليج، وقد أضاءت فترة كان يعتقد بأنها معتمة في المنطقة، حيث برع سكان الألفي الثاني والأول ق. م. حتى العصر الهيليني(١٥٠ سنة قبل الميلاد وهناك رأي ٢٠٠ سنة ق. م..) في صناعة الفخار والبرونز والنحاس ودلت اللقي الأثرية من المدافن الحجرية في وادي حِيْمَا بِحَتَّا والتي يعود بناؤها إلى الفترة من ٢٥٠٠ ــ ٢٠٠٠ ق. م على إنها استخدمت مرة أخرى في القرن الخامس الميلادي.

يقع وادي حتا على بعد ١٠٠ ك م إلى الجنوب الشرقي من مدينة دبي في وادي منسيح تحده الجبال من كافة الأرجاء.

وعرفت بجمالها وخضرتها وماءها العذب مما يسر لقيام حضارة تمتد إلى الآف السنين الغابرة كما تشير الاكتشافات الأثرية.

وفي منطقة المدافن الموجودة على الجانب الأيسر لوادي جيما يوجد حوالي ٥٠ مدفنا مختلفة الأحجام والأشكال تعود بتاريخها إلى الألف الثالث ق. م وتنتمي إلى طراز المدافن المعروفة بأم النار، وهي من الأضلة القابلة التي تم العثور عليها في الإمارات الشمالية مما يثبت أن المنطقة شهدت كثافة سكانية وتقدماً حضارياً مرموقاً، وقد وجد في إحدى المدافن بقايا أثرية عبارة عن كميات من الكسر الفخارية وبعرض الكسر لأواني مصنوعة من الحجر الصابوني (الاستيتايت) وغطائه المزخرف بالدوائر ذات النقاط المركزية وخرز مختلفة الأحجام والألوان وعدد من رؤوس السهام المصنوعة من النحاس وخاتم كبير من العظم، ويعتبر هذا المدفن من أهم المدافن وأكبرها حجماً في المنطقة ونموذجاً فريداً لأشكال المدافن القديمة.

إن مدافن حَتَّا تعطي الباحث دلالة واضحة على أن سكان هذه المنطقة حققوا تقدماً وازدهاراً في ميادين البناء والحضارة والفن.

تل أم سقيم:

كشفت المسوحات الأثرية فوق ثلة صغيرة على مقربة من الميناء السياحي بدبي عن موقع اثري يعود تاريخه للعصر البرونزي الأول (الألف الثالث ق. م) وقد أطلق عليه اسم تل أم سقيم.

المنارة للاستشارات
PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.

يعتبر هذا الموقع دلالة جديدة على عمق الجذور الحضارية للإمارة وأهميتها في بناء الحضارة الإنسانية منذ بداية العصور التاريخية وحتى الوقت الحاضر حيث أنها تمثل أهمية كبيرة من الناحيتين التاريخية والأثرية باعتباره أول موقع من هذا العصر تم اكتشافه بالقرب من دبي.

دلت مواقد النار وبقايا الكتل الحجرية لأحدى المدن أو الموانئ القديمة التي يرجح بأنها لعبت دوراً هاماً ومميزاً في بناء الحضارة الخاصة بمنطقة الخليج كما ساهمت في تطور العلاقات الاقتصادية بين حضارتي الهند ووادي الرافدين إبان الألف الثالث ق.م.

الموقع الأثرية في امارة دبي:

الصفوح، العشوش، سروق الحديد، حتا، القصيص، الجميرا.

الصفوح:

أحد أكبر المدافن في دبي يعود لعام ٢٥٠٠ ــ ٢٠٠٠م عثر فيه على خناجر، وإبر، وأزاميل، وخواتم برونزية، وكميات كبيرة من الخرز، وكذلك ١٦ آنية فخارية.

إن المقتنيات الجنائزية التي تدل على البعث في الألف الثاني تدل وبكل وضوح على أن الإنسان على ثرى الإمارات كان يعتقد أو يؤمن بأهمية الديانة في حياته اليومية، وأن وجود المعابد هو أمر مهم بالإيمان والمعتقد.

القصيص:

موقع أثري متميز يمتد على بعد ١٥ كيلو متراً من ديرة، ويمثل مركزاً حضارياً لبقايا استيطان بشري في المنطقة بدأ من الألف الثالث ق. م. وحتى النصف الثاني من الألف الأول ق. م تمثلت بالعثور على بقايا معبد صغير ربما خصص لعبادة الثعابين وحقولهن المدافن المختلفة الأشكال منها المستطيلة.

(الالف الثاني ق. م) والبيضاوية (النصف الثاني للألف الثاني ق. م) ومدافن بهيئة حذا (الألف الأول) ضم بعضها هياكل عظمية شبه سليمة، ولعل أكثر الاكتشافات الأثرية نذرة الصقور على مدافن تضم هيكلين ملتحمين يرجح كونهما زوجين متقابلين اتجهت الأنثى بهما نحو الجنوب حيث التجمعات البشرية استكمالاً لرعاية مستلزمات الحياة الاعتيادية اليومية.

على حين يستقبل الرجل البحر بوجهه تحديداً لمهامه الوظيفية بالبحث عن الرزق عبر البحر بالصيد أو الإبحار بحيث توضح معالم مجتمع حضاري مرتكز على عقيدة دينية تؤمن بالحياة بعد الموت وتزود الملحود بالكثير من الهدايا الجنائزية من أدوات فخارية وبرونزية وحجرية، تمثل أدوات متتالية وجلس وجرار وأواني وأصداف، ولعل الدلالات التاريخية لتجمعات القصيص تشير بتمتعها بتفوق حضاري قائم على الارتباط التجاري بحكم الموقع الجغرافي والاقتصاد المدعم بالتصنيع المحلي.

المنارة للاستشارات
PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.

ختاماً:

أمل أن نكون قد سلطنا الضوء على التقديس للثعابين عند الإنسان الإماراتي خلال الألف الأول قبل الميلاد وشكراً.

المراجع

* إشارة: حتى كتابة هذه المحاضرة لم يتم العثور على أي مادة علمية أو مرجع كتب عن الثعابين من الناحية التاريخية في الخليج، ولهذا زرنا المتاحف بالدرجة الأولى للإطلاع مباشرة على الآثار ودراستها.

١ــ زيارة لمتحف إمارة دبي في ٢٠٠٩/١/٧م.
٢ــ زيارة لمتحف إمارة الشارقة في ٢٠٠٩/١/٨م.
٣ــ زيارة لمتحف إمارة رأس الخيمة في ٢٠٠٩/١/١٠م.
٤ــ زيارة لمتحف مدينة العين في ٢٠٠٩/١/١١م.
٥ ــ زيارة لمتحف إمارة أم القيوين في ٢٠٠٩/١/١٠م .
٦ــ زيارة لمتحف إمارة الفجيرة في ٢٠٠٩/١/١٢م.
٧ــ زيارة لمتحف المنامة/ مملكة البحرين.
٨ــ الدنون، عبدا لحكيم.
بدايات الحضارة، ط س٢٠٠٩م، دمشق.
٩ــ التقويم القبطي واللغة القبطية.
١٠ــ الدرورة، علي بن إبراهيم
فصل: (صناعة المياد ير في العصر البرونزي)، عن كتاب:
جوانب من التراث البحري في دولة الإمارات العربية المتحدة.
إصدار مركز زايد للتراث والتاريخ، س ٢٠٠١م، أبوظبي.
١١ــ طه، منير يوسف.
قصة الحلي في دبي قبل ٣٠٠٠ عام.
مجلة تراث، نادي تراث الإمارات ــ أبو ظبي
ع ٤٥، جمادى الأولى ١٤٢٣هـــ ــ أغسطس ٢٠٠٢م.
١٢ــ النقيب، امتثال..
تنقيبات تل الثعابين في دبي:
مجلة تراث، نادي تراث الإمارات، أبو ظبي.
ع ٧٦، س ٧، محرم/ صفر ١٤٢٦هـــ ــ مارس ٢٠٠٥م.
١٣ــ تاروز، سامح مقار
اللهجة العامية وجذورها المصرية
مكتبة مدلولي، ٢٠٠٦ ــ ٢٠٠٧م، ط١، القاهرة.

المنارة للاستشارات
PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com
www.